

الأسس اللغوية والبلاغية في توجيه المعنى عند الزجاج في تفسيره

The Linguistic and Rhetorical Foundations in Guiding Meaning in Al-Zajjāj's Tafsir

د. عصام خروبي¹

kherroubiaissam25@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/03/15

Received: 01/10/2025

تاريخ الاستلام: 2025/10/01

published: 15/03/2026

ملخص المقال:

يهدف هذا البحث إلى دراسة منهج أبي إسحاق الزجاج (ت311هـ) في تفسير القرآن الكريم، من خلال إبراز التكامل بين الأسس اللغوية والبلاغية في تحليل النص القرآني، اعتمد الزجاج على الإعراب باعتباره وسيلة لتحديد المعنى وضبط دلالات التراكيب، كما وظّف الأدوات البلاغية كالتقديم والتأخير، والحذف والإيجاز، والاستعارة والكنية لإبراز الجماليات الأسلوبية للنص القرآني. وقد أظهر البحث أن الزجاج لم يقف عند حدود التحليل اللغوي أو البلاغي منفصلين، بل جمع بينهما في منهج متكامل جعله حلقة وصل بين جهود النحويين والبلاغيين، وممهداً لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني. كما بيّنت الدراسة أثره في المفسرين اللاحقين كالزمخشري والرازي، وأكدت أهميته في إرساء مقاربات يمكن الاستفادة منها في الدراسات اللسانية والبلاغية الحديثة. كلمات مفتاحية: الزجاج، التفسير، النحو، التوجيه البلاغي واللغوي، التكامل اللغوي، الإعجاز القرآني.

Abstract:

This study investigates the exegetical method of Abū Ishāq al-Zajjāj (d. 311H) by highlighting the integration of linguistic and rhetorical foundations in Qur'anic interpretation. Al-Zajjāj employed grammatical analysis as a tool to regulate meaning and determine syntactic relations, while also utilizing rhetorical devices such as word order, ellipsis, brevity, metaphor, and metonymy to reveal the stylistic beauty of the Qur'anic text. The research shows that al-Zajjāj did not confine himself to grammar or rhetoric in isolation, but combined them into a coherent method that bridged the work of grammarians and rhetoricians, paving the way for 'Abd al-Qāhir al-Jurjānī's theory of nazm (textual organization). His influence on later exegetes such as al-Zamakhsharī and al-Rāzī demonstrates the lasting significance of his approach, which also offers insights relevant to modern linguistic and rhetorical studies.

Keywords: Al-Zajjāj, Tafsīr (Qur'anic Exegesis), Syntax, Rhetorical and linguistic guidance, Linguistic Integration, Qur'anic I'jāz (Inimitability)

مقدمة:

يُعَدُّ أبو إسحاق الزجاج (ت311هـ) من كبار علماء العربية الذين جمعوا بين علوم النحو والبلاغة والتفسير، وكان له دور بارز في إبراز أبعاد النص القرآني من خلال الجمع بين التحليل اللغوي والبلاغي. وقد تميز بقدرته على المزاوجة بين دقة الصناعة النحوية وجمالية الأسلوب البلاغي، مما جعله حلقة وصل أساسية بين النحاة والبلاغيين والمفسرين، تنبع أهمية هذا البحث من أنه يتناول منهج الزجاج في 'معاني القرآن وإعرابه' وهو كتاب يُعَدُّ من أوائل التفاسير التي اعتمدت التحليل النحوي والبلاغي معًا بشكل يسبق بل يهيئ لنشوء نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني (النجار، 2010، ص 45). فالزجاج لم يكتفِ بعرض الإعراب، بل جعله وسيلة لضبط المعنى وتوسيع الدلالة، كما أولى عناية بالأساليب البلاغية التي تُظهر عمق النص القرآني وقدرته على التأثير والإقناع.

وتكمن إشكالية البحث في السؤال الرئيس:

كيف وظّف الزجاج أدوات النحو والبلاغة في تفسير النص القرآني، وما أثر منهجه في تطوير الدراسات اللغوية والبلاغية والتفسيرية؟ انطلاقًا من هذه الإشكالية، يهدف البحث إلى:

1- الكشف عن الأساس اللغوي في توجيه المعنى عند الزجاج.

2- إبراز الأساس البلاغي في منهجه.

3- دراسة التكامل بين النحو والبلاغة في تفسيره.

4- عرض التطبيقات العملية من تفسيره وبيان أثره في المفسرين اللاحقين.

وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، وذلك باستقراء نصوص مختارة من 'معاني القرآن وإعرابه' وتحليلها لغويًا وبلاغيًا، مع ربطها بما قدمه المفسرون والبلاغيون بعده. كما استفادت من الدراسات الحديثة التي تناولت التوجيه البلاغي واللغوي، من أجل بناء قراءة متجددة لجهود الزجاج.

2. مفهوم التوجيه البلاغي واللغوي عند الزجاج:

يركز منهج الزجاج في تفسير القرآن الكريم على التوجيه البلاغي واللغوي للنص، حيث لا يقتصر اهتمامه على الجانب الجمالي أو الزخرفي اللفظية فقط، بل يتعدى ذلك إلى ضبط المعنى ضمن السياق وتنظيم الأسلوب بما يتناسب مع المقام. كما يهتم بفهم الوظيفة النفسية والتأثيرية للكلمات داخل النص القرآني، مع مراعاة الفروق الدقيقة بين أنواع الخطاب المختلفة كالنص القرآني، والأدبي، والخطابي. بهذا المنهج، يُعتبر الزجاج من الرواد الذين أسسوا لبلاغة المعنى المقصود، وليس مجرد بلاغة اللفظ (النجار، 2010، ص ص 15-20).

1.2. التوجيه اللغوي:

يقصد بالتوجيه اللغوي توجيه التركيب النحوي أو الصريّ أو الدلاليّ في ضوء قواعد اللغة، بما يُسهّم في فهم المعنى المقصود من اللفظ داخل السياق. والتوجيه بهذا المعنى يتّصل اتصالًا وثيقًا بعلم النحو وعلم اللغة عمومًا، حيث إنّ اختلاف الإعراب أو الصّرف قد يؤدي إلى اختلاف في دلالة النص، وهو ما نبّه عليه الزجاج في غير موضع من شرحه وتفسيره (الفراء، 1955، 152/3).

وقد ظهر هذا المعنى جليًا عند الزجاج في تفسيره لآيات كثيرة من كتاب الله تعالى، إذ كان يربط بين الإعراب وفهم المعنى، ويرى أن التوجيه السليم للجملة لا يتم إلّا بتحقيق الانسجام بين التركيب والتية التعبيرية. ومن هنا كان توجيهه للنص اللغوي نابغًا من رؤية نحوية دقيقة ذات بُعد بلاغي واضح (الزركشي، 1957، 1/ 134).

2.2. التوجيه البلاغي:

أما التوجيه البلاغي فهو أعمق وأوسع، إذ يُراد به توجيه اللفظ والمعنى وفق مقتضى الحال، وتحقيق التأثير في المتلقي، من خلال استعمال أساليب بلاغية كالقديم والتأخير، والحذف، والذكر، والإيجاز، والتصوير البياني، وغيرها. وقد أولى الزّجاج هذا التوجيه اهتمامًا بالغًا، إذ لم يكن يتعامل مع الألفاظ من حيث هي أصوات أو تراكيب مجردة، بل كان ينظر إليها من زاوية وظيفتها التأثيرية، وقدرتها على أداء المعنى بحسب الغرض والسياق (السيوطي، 1987، 72/2).

3.2. الزّجاج ومنهجه في التوجيه:

1.3.2. دمج النحو بالبلاغة:

انفرد الزّجاج عن غيره من علماء عصره بأنه دمج النحو والبلاغة، فكان يرى أنّ البلاغة لا تُدرك إلا بفهم النحو، والعكس صحيح. وهذا ما جعله يُسهم في تأسيس ملامح التوجيه البلاغي المعتمد على القاعدة اللغوية. وقد ظهر هذا في شرحه للآيات القرآنية، حيث كان يبدأ بتحليل إعرابي، ثم ينتقل إلى بيان بلاغي، موضحًا كيفية تأزر الإعراب مع المقصد البلاغي. ومن أمثله ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 17]. إذ فسّر التكرار والتّطويل البلاغيّ بأنّه من باب الإناس والتّطمين، لا الحشو، ووجّه الخطاب توجيهًا يتجاوز مجرد المعنى اللغويّ الظاهر إلى المقصد التّفسيّ والبلاغيّ العميق (الرجاني، 1982، ص 46).

2.3.2. مراعاة مقتضى الحال:

يؤكد الزّجاج في مواضع كثيرة أنّ الكلام لا يُفهم خارج سياقه المقاميّ، وأنّ البلاغة قائمة على الملاءمة بين الكلام والحال، أي أن يجيء الكلام على قدر الحاجة، دون زيادة مملّة أو نقصانٍ مخلّ. ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]. حيث يرى أن تقديم "إنما" فيه حصرٌ وقصرٌ لمفهوم الإخوة الحقيقية في الإيمان، وأن هذا التوجيه البلاغيّ يُحقّق الغرض الإصلاحيّ في السياق الاجتماعيّ الذي نزلت فيه الآية (الزّمخشري، 1998، 348/4).

3.3.2. التفسير بالأثر البلاغي:

يلاحظ على منهج الزّجاج أنّه لا يكتفي بعرض الظاهرة البلاغية، بل يُفسّر أثرها في النصّ، ويبين كيفية خدمتها للمعنى، فلا يكتفي بذكر "الاستعارة"، بل يشرح لم استخدمت، وما أثرها في النفس (الرجاني، دلائل الإعجاز، 1991، ص 45-47).

4.3.2. خصائص التوجيه عند الزّجاج:

• **الوضوح والاقتصاد في اللفظ:** يوجّه اللغة نحو أداء المعنى بأقلّ عدد من الألفاظ، دون الإخلال بالتأثير (الزجاج، 1988، 45/2).

• **العناية بالصياغة التفسيرية:** يُعيد بناء المعنى بأسلوبه، لا يكتفي بنقل، بل يُجِلّل ويفسّر (الزجاج، 1988، 212/4).

• **التركيز على المقصد:** يوجّه النصّ نحو غرضه النهائيّ (إقناع، إيناس، تحويل، ترغيب) (الزجاج، 1988، 354/3).

يتبين من خلال هذا الفصل أنّ التوجيه البلاغيّ واللغويّ عند الزّجاج كان نتاج رؤية لغوية عميقة، ومهارة تحليلية دقيقة، إذ استطاع أن يُوفّق بين القاعدة النحوية والتأثير البلاغيّ في إطارٍ متكامل. وقد كان هذا التّكامل أحد أبرز وجوه تجديده في الدرس البلاغيّ واللغويّ،

وهو ما سيمتدّ بيانه في الفصول اللاحقة من خلال استعراض الأسس النظرية التي اعتمدها، والنماذج التطبيقية التي جسّد بها منهجه.

3. الأساس اللغوي في توجيه المعنى عند الزّجاج:

يُعَدّ الجانب اللغوي من أبرز متركزات منهج الزّجاج في التفسير؛ إذ يرى أن الإعراب هو المفتاح الأول لفهم الدلالة القرآنية. فهو يعتقد أن أي إهمال للبنية النحوية من شأنه أن يؤدي إلى اضطراب في المعنى، فالتحليل النحوي عنده يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدلالة، إذ يرى أن اختلاف الحركة الإعرابية يؤدي إلى اختلاف في المعنى المراد من النص القرآني (الزجاج، 1988، 45/2).

فالأساس اللغوي عند الزّجاج يمثل إذن مدخلاً حاسماً لفهم التفسير القرآني، وهو ما جعله يحظى بمكانة بارزة بين المفسرين واللغويين على حد سواء، وبفضل توظيفه للنحو في خدمة المعنى، أسس منهجاً يربط بين المبنى والمعنى، ويجمع بين الأصالة والابتكار.

لقد أبرز الزّجاج في كتابه 'معاني القرآن وإعرابه' أهمية الإعراب في بيان العلاقات بين الكلمات داخل التراكيب، فالإعراب يكشف الوظيفة النحوية ويحدد موقع الكلمة من الجملة، وهو ما ينعكس مباشرة على المعنى. وقد استشهد بالعديد من الآيات لبيان هذا الجانب، مؤكداً أن ضبط الإعراب أساس في فهم مقاصد الخطاب القرآني (ابن يعيش، 2001، ص 77).

كما أولى الزّجاج عناية كبيرة بالسياق، معتبراً أنه المرجع الأساسي في تفسير الألفاظ وتوجيه المعاني. إذ يرى أن الكلمة لا تُفهم إلا في إطارها النصي والموضوعي، فالقرآن يُفسّر بعضه بعضاً، والسياق هو الذي يرفع الإشكال عند تعدد الدلالات (ابن جني، 1995، ص 88) ومن خلال هذا المنهج، تمكن من تجاوز التفسير الحرفي إلى تحليل أعمق. يرتبط بالبنية النصية والدلالية

ولم يكتفِ الزّجاج بالتحليل النحوي المجرد، بل ربطه بالسياق القرآني العام، مؤكداً أن المعنى لا يُفهم إلا في ضوء المقام والسياق الذي يرد فيه. وهو بذلك يسبق كثيراً من المناهج الحديثة التي تربط بين البنية اللغوية والبعد التداولي. (الطبري، 2000، ص 211).

إلى جانب الإعراب والسياق، اعتمد الزّجاج على القراءات القرآنية باعتبارها ميداناً رحباً لتعدد المعاني، إذ يرى أن القراءات ليست اختلافاً شكلياً، وإنما تنوع دلالي يثري النص القرآني ويكشف عن أبعاده البلاغية (الزحاشي، 1998، ص 210)، فقد تناول على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وقراءتها الأخرى ﴿مَلِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 04]، مبيّناً الفروق الدلالية بين 'مالك' و 'ملك' وأثر ذلك في المعنى العقدي والبلاغي.

كذلك اعتمد الزّجاج على المعجم العربي والشواهد الشعرية لتفسير المفردات القرآنية. فقد كان يؤمن أن العربية الفصحى المستخدمة في الشعر الجاهلي هي المرجع لفهم القرآن، لذا أورد شواهد كثيرة ليعضد بها معاني الألفاظ ويبرهن على أصالتها في الاستعمال العربي (الفارسي، 1999، ص 65)، ومن خلال ذلك جسّد الربط بين التراث اللغوي والنص القرآني، مما أعطى لتفسيره بعداً لغوياً أصيلاً ومتيناً..

وبذلك يتضح أن الزّجاج قد جعل من الإعراب، والسياق، والقراءات، والمعجم، والشواهد الشعرية، أدوات متكاملة لفهم النص القرآني. وهو ما يجعله رائداً في التفسير اللغوي، وممهّداً لظهور مناهج أكثر نضجاً عند من جاء بعده من المفسرين والبلاغيين (الجرجاني، دلائل الإعجاز، 1991، ص 33).

4. الأساس البلاغي في ضبط المعنى والأسلوب عند الزّجاج:

لم ينفصل الجانب البلاغي عند الزّجاج عن الجانب اللغوي، إذ كان يرى أن جمال الأسلوب القرآني لا يكتمل إلا بفهم التراكيب في ضوء مقاصدها البلاغية. وبذلك أسهم في وضع أسس ما يمكن اعتباره بداية للتفسير البلاغي، حيث جمع بين الإعراب والمعنى من جهة، والبيان والإقناع من جهة أخرى، إلى جانب اعتماده على الأساس اللغوي، أولى الزّجاج اهتماماً بالغاً بالأساليب البلاغية التي تُعَدّ مفاتيح لفهم

عمق النص القرآني، حيث رأى أن البلاغة ليست مجرد تزيين للخطاب، بل وسيلة لإبراز المعنى وإقناع المتلقي.

1.4. التقديم والتأخير:

اعتبر الزجّاج أن التقديم والتأخير من أهم وسائل الحصر والتوكيد في النص القرآني، ففي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 05] أوضح أن تقديم المفعول 'إياك' يفيد الحصر، أي تخصيص العبادة والاستعانة بالله وحده (السكاكي، 1987، ص 75)، وهذا الأسلوب يبين البعد الدلالي والبلاغي الذي لا يتحقق بالإعراب وحده، بل يحتاج إلى وعي بلاغي متكامل.

2.4. الحذف والإيجاز والإطناب:

اهتم الزجّاج بالحذف والإيجاز باعتبارهما من أساليب البلاغة التي تمنح النص قوة دلالية، فالحذف عنده لا يعني نقصاً بل زيادة في البلاغة، لأنه يثير ذهن المتلقي لاستحضار المعنى المحذوف (ابن الأثير، 1999، صفحة ص 144)، أما الإيجاز فقد رآه سمة أساسية للخطاب القرآني الذي يجمع بين قلة الألفاظ وغزارة المعاني، بينما اعتمد على الإطناب حيثما اقتضى المقام التفصيل والتوضيح (القزويني، 2003، ص 212).

3.4. الاستعارة والكناية:

اعتبر الزجّاج الاستعارة من أبرز الوسائل التي تُظهر جمالية النص القرآني. ففي قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 24] بين أن الاستعارة هنا تمنح صورة حسية تجسد المعنى العاطفي وتجعل النص أكثر قرباً من وجدان المتلقي عبر تصوير معنوي بديع (الجرجاني، دلائل الإعجاز، 1991، ص 88) أما الكناية، فقد تناولها باعتبارها وسيلة للتلميح والإيحاء دون تصريح مباشر، وهو ما يفتح المجال أمام دلالات متعددة (الزمخشري، 1998، ص 305).

4.4. البعد الجمالي والأسلوبي:

من خلال منهجه البلاغي، ركز الزجّاج على البعد الجمالي للنص القرآني، حيث اعتبر أن الأسلوب القرآني يتفرد بقدرته على الجمع بين الإقناع العقلي والتأثير الوجداني. وهذا ما يجعل النص متفرداً عن سائر النصوص البشرية، ويُظهر الإعجاز البلاغي للقرآن (الخطابي، 1997، ص 55).

5.4. الانسجام بين المبنى والمعنى:

أكد الزجّاج على التوافق بين المبنى والمعنى في النص القرآني، مبيّناً أن اختيار الألفاظ يتم بدقة بالغة. فاستعمال صيغة المضارع بدل الماضي، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15] يحمل دلالة الاستمرار والتجدد، مما يبرز انسجام البنية اللغوية مع المقصد الدلالي (عتيق، 1985). لذ اعتمد الزجّاج على مبدأ أساسي يتمثل في أن المبنى لا ينفصل عن المعنى، وأن تغيير البنية التركيبية يؤدي إلى تغيير في الدلالة. وهذا المبدأ يُعدّ نواة لما عُرف لاحقاً بنظرية النظم. فالنص القرآني في نظره يتفرد بقدره أسلوبه على خلق انسجام بين اللفظ والمعنى، بحيث تكون كل كلمة في موقعها لتحقيق غاية بلاغية معينة (ابن جني، 1995، ص 102).

يتضح مما سبق أن الزجّاج لم يكن نحوياً فحسب، بل بلاغياً أيضاً، إذ اعتمد على التقديم والتأخير، والحذف والإيجاز والإطناب، والاستعارة والكناية، لإبراز جماليات النص القرآني وعمقه الدلالي. وقد شكّل هذا الأساس البلاغي رافداً أساسياً لمنهجه التفسيري، وممهداً لجهود من جاء بعده من البلاغيين والمفسرين.

5. أسس ضبط اللفظ في التوجيه البلاغي

1.5. الإعراب بوصفه أداة للتوجيه

كان الزّجاج من أعلام النّحاة، وقد استثمر هذا التخصص في توجيه النصوص البلاغية، فربط بين إعراب الجملة وفهم وظيفتها البلاغية، وبين أن اختلاف الإعراب قد يُغيّر المعنى أو يُقوّي دلّالته أو يُضعفها، ومن أمثلته تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَٰنِ﴾ [طه: 63] (الزجاج، 1988، 230/3-231).

حيث فسّر الآية على قراءة الجمهور بتوجيه نحويّ خاص، وبين أن التوجيه البلاغي لا يتوقّف على مطابقة الإعراب الظاهريّ، بل على وظيفة الكلام في السياق، مشيراً إلى أن تكرار 'إن' مع 'هذان' يُفيد التّهويل من شأن السّاحرين، لا مجرد الإخبار عنهما.

2.5. التقديم والتأخير بوصفه أسلوباً بلاغياً

يرى الزّجاج أن تقديم بعض أجزاء الجملة وتأخير بعضها الآخر ليس عبثاً، بل هو مقصود بلاغيّ، يُفيد الحصر، أو التخصيص، أو التّهويل. ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5].

إذ يُبرز أن تقديم المفعول به 'إِيَّاكَ' فيه قصرٌ للعبادة على الله وحده، فهو ليس فقط بناء نحويّ، بل بناء بلاغيّ مقصود يخدم المعنى العقديّ (الزجاج، 1988، 48/1).

3.5. الاستعمال البياني للفظ

لم يكن الزّجاج يكفي بتفسير المفردات تفسيراً لغوياً، بل كان يتتبع أسلوب استعمالها البيانيّ، فيبيّن لماذا اختيرت كلمة دون أخرى. ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37].

فيُبرز أن اختيار 'مرحاً' دون 'كبرياء' أو 'حُبلاء'، يُشير إلى حال نفسيّة مَرَضِيّة في الإنسان، تعبّر عن الطّيش والحفّة، لا مجرد الكبر، وهو ما يدلّ على دقّة انتقاء الألفاظ (الزجاج، 1988، 240/3).

6. التكامل بين النحو والبلاغة عند الزّجاج:

لقد تميز أبو إسحاق الزّجاج بمنهجه الذي جمع بين النحو والبلاغة في دراسة النص القرآني، فلم ينظر إلى الإعراب بوصفه بنية شكلية مستقلة، بل تعامل معه باعتباره وسيلة أساسية لفهم المعنى وإبراز الدلالة. وفي المقابل، لم يتعامل مع البلاغة باعتبارها مجرد أسلوب جمالي، وإنما جعلها إطاراً لفهم وظائف التراكيب ودورها في تحقيق الإقناع والتأثير.

1.6. تكامل الإعراب مع الدلالة البلاغية:

يُظهر تفسير الزّجاج للآيات القرآنية أن الإعراب عنده يرتبط بالبلاغة ارتباطاً وثيقاً، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 45]، أشار إلى أن صيغة المبالغة 'ظلام' جاءت في سياق النفي لتفيد الكمال في العدل، وهذا المعنى البلاغي لم يكن ليُفهم لولا التحليل النحوي الدقيق (الزجاج، 1988، ص 132).

ومن ثم فإن الإعراب عنده لا ينفصل عن الغاية البلاغية للنص.

7. أثر الزّجاج في المدرسة البلاغية:

إذا قورن الزّجاج ببعض معاصريه مثل الفراء أو المبرد، نجد أنه تميز عنهم بجمعه بين علوم متعددة. فالفراء ركّز على الجانب الكوفي في التفسير، بينما اهتم المبرد بالقضايا النحوية البحتة، في حين أن الزّجاج استطاع أن يزاوج بين الدقة النحوية والتحليل البلاغي، مما جعله أكثر شمولية

وتأثيراً (المبرد، 1997، ص 64) .

1.7. أثره في البلاغيين اللاحقين:

يبدو أثر الزجّاج واضحاً في تأسيس الطريق أمام عبد القاهر الجرجاني لنظرية النظم، فقد تبنّى الجرجاني مبدأ أن الإعجاز القرآني يكمن في النظم، أي في الطريقة التي تُرتب بها الكلمات والتراكيب لتنتج المعنى. وهذه الفكرة كانت متجذرة في منهج الزجّاج الذي جمع بين دقة الإعراب وعمق البلاغة (الجرجاني، دلائل الإعجاز، 1991، ص 55)، فالجرجاني وإن صاغ نظريته بصورة أشمل، إلا أن لبناتها الأولى وُجدت عند الزجّاج. كما وجد السكاكي في تفسيره للقرآن أرضية صلبة انطلق منها لتطوير مباحث علم المعاني والبيان (ابن الأثير، 1999، ص 211).

لم يقف تأثير الزجّاج عند حدود الجرجاني، بل امتد إلى البلاغيين المتأخرين مثل السكاكي في 'مفتاح العلوم' والقزويني في 'الإيضاح' فقد أفاد هؤلاء من المنهج الذي يربط بين النحو والبلاغة، وجعلوا العلاقة بين المبنى والمعنى قاعدة أساسية في دراسة النصوص. ويظهر هذا التأثير بوضوح في حديث السكاكي عن وظائف التراكيب ودورها في تحقيق البلاغة (السكاكي، 1987، ص 220).

2.7. أثره في المفسرين اللاحقين:

أثر الزجّاج تأثيراً كبيراً في المفسرين، وعلى رأسهم الزمخشري الذي تبنى التكامل بين النحو والبلاغة في 'الكشاف'، والرازي في 'مفاتيح الغيب'، والبيضاوي في 'أنوار التنزيل'. فهؤلاء جميعاً استفادوا من منهجه الذي يجمع بين الإعراب والبلاغة لإبراز أبعاد النص القرآني (الرازي، 1981، ص 55).

. كما أن الطبري وإن كان سابقاً له، فقد ركّز على الرواية أكثر من التحليل البلاغي، وهو ما يبرز فريدة الزجّاج في اعتماده التحليل العقلي والدلالي.

انعكس منهج الزجّاج في مؤلفات كبار المفسرين، فالزمخشري في الكشاف اعتمد النحو والبلاغة معاً، كما استفاد الرازي في مفاتيح الغيب من هذا التكامل، مما يدل على امتداد تأثير الزجّاج في المدارس التفسيرية اللاحقة (الزركشي، 1957، ص 105-106).

8. التكامل في ضوء الدراسات الحديثة:

لقد أعادت الدراسات الحديثة قراءة منهج الزجّاج باعتباره نموذجاً مبكراً للتكامل بين علم اللغة والبلاغة. فقد أشار بعض الباحثين إلى أن جهوده تمثل بذوراً أولى لما يُعرف اليوم باللسانيات النصية وتحليل الخطاب، حيث يتم التركيز على دور السياق والبنية التركيبية في إنتاج المعنى (حسن، 2005، ص 141).

ومن هنا تتجلى قيمة جهوده بوصفها أساساً يمكن تطويره في ضوء المناهج المعاصرة يتضح من العرض السابق أن الزجّاج كان من أوائل العلماء الذين أدركوا أن النحو والبلاغة وجهان لعملة واحدة، فلم يفصل بينهما بل جعلهما إطاراً واحداً لفهم النص القرآني. وقد مهد بذلك الطريق لظهور نظرية النظم عند الجرجاني، كما أثر في البلاغيين من بعده، مما يجعل منهجه علامة فارقة في تطور الدراسات اللغوية والبلاغية في التراث العربي.

1.8. أثر الزجّاج في الدراسات الحديثة:

أعيد النظر في منهج الزجّاج في الدراسات الحديثة، حيث عُدّ من أوائل من جمعوا بين النحو والبلاغة في تحليل النص القرآني. وأشار بعض الباحثين إلى أن منهجه يمهّد لمقاربات حديثة مثل اللسانيات النصية وتحليل الخطاب، وهو ما يمنحه قيمة مضافة في الدراسات القرآنية المعاصرة (حسن، 2005، ص 141).

يتضح من خلال هذا العرض أن الزجّاج لم يكن مجرد نحوي أو مفسر تقليدي، بل كان رائداً في الدمج بين الأبعاد اللغوية والبلاغية في التفسير. وقد أثر في أجيال لاحقة من المفسرين والبلاغيين، كما شكل مرجعاً في الدراسات الحديثة التي سعت لإعادة قراءة جهوده في ضوء المناهج المعاصرة.

9. بعض النماذج التطبيقية في التوجيه البلاغي واللغوي عند الزجّاج

كان الزجّاج يُولي النصّ القرآنيّ عنايةً بالغةً، إذ عرّف بتوجيهه الدقيق للمعاني والألفاظ في سياق التفسير. وقد استُخدم في ذلك منهجاً يجمع بين المبحث النحوي والرؤية البلاغية. وفي مواضع كثيرة، يُمكن للنّاظر أن يُبصر كيف أخذ الزجّاج بمعاني اللفظ ووجهها وفق المقام، فلم يقف عند الشكل النحوي، بل تعداه إلى البعد الدلالي والوظيفي.

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]

يُفسّر الزجّاج فعل "استوى" بمعنى "علا وارتفع"، ويُشير إلى أنّ العرش هنا إثبات السيادة والتدبير الكلّي، لا الجهة الحسيّة. وفي هذا التوجيه يظهر جمع الزجّاج بين معنى لغوي دقيق وتوجيه عقدي واضح، فهو لا يفصل في التفسير بين المبنى والمعنى، بل يجمعهما في تنسيق واحد (الزجاج، 1988، 319/3).

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: 14]

يوجّه الزجّاج الآية بلاغيّاً يربط فيه بين المبنى والأثر، فيقول: إنّ "قد" في الآية تُفيد التحقيق، وإنّ اختيار "تزكّى" في الموضع يدلّ على الطهر الباطني، لا مجرد الفعل الظاهر، وبذلك يحقق النص أثرًا إيمانيًا عميقاً في النفس. تكشف كُتب الزجّاج وفي مُقدّماتها 'معاني القرآن' عن دقّة فهمه للمباني النحويّة وتوجيهه لها في سياقها المقامي والدلالي (الزجاج، 1988، 393/3).

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: 26]

يُفسّر الزجّاج التوكيد في "فإمّا" و"إنّ" على أنّه للتقوية والتّكيز في المقام العصب الذي يَحْتَازُهُ مَرِيْمٌ، ويُبيّن أنّ هذا الأسلوب يجمع بين الوقع النفسي والقوّة البيانيّة، مع أنّه قد يندو في ظاهره مُكرّراً (الزجاج، 1988، ج 3، ص 154) (الزجاج، 1988، 154/3).

الموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً﴾ [ص: 23]

يوجّه الزجّاج التّقديم في "هذا أخي" على أنّه تّقديمٌ للإستعطاف والتّلطيف، ويُشير إلى أنّ ذكر الأُخوة في البداية قصده هَيْئَةُ النَّفْسِ لِتَقْبُلِ الشُّكْوَى، وهو تحليلٌ بلاغيّ دقيق في معرفة خواص الخطاب (الزجاج، 1988، 252/4).

الموضع الخامس: قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 17]

التوجيه البلاغي: يقف الزجّاج عند هذه الآية وقفة دالة على وعيه بمقاصد الخطاب القرآني؛ إذ يلفت النظر إلى أنّ الله تعالى لم يقل: "ما في يمينك؟" بل قال: "وما تلك يمينك"، وهي صيغة استفهامية مطوّلة نسبياً.

ويُفسّر هذا التطويل على أنه من أساليب التأنيس واللطف، والمقصود منه تهدئة روع موسى عليه السلام بعد موقف الوحي المهيّب، فالإطناب هنا ليس عبثاً بل هو إنسان وإقبال في الخطاب، يقوّي من أثره النفسي.

الوظيفة البلاغية: توجيه الزجّاج يكشف عن فهم عميق لوظائف التعبير، فالسؤال لم يُطرح لطلب المعرفة، بل لإظهار عناية الله بموسى، وتهنيئته لحمل الرسالة. واللفظ "تلك" مع ما فيه من الإشارة والبعد، يُضفي على الخطاب مسحة من العظمة والاهتمام (الزجاج، 1988، 323/3).

الموضع السادس: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ﴾ [طه: 63]

التوجيه اللغوي والبلاغي: تناول الزجاج هذه الآية التي شككت موضع إشكال لغوي، نظراً لظهور اسم "إن" مرفوعاً (هذان)، مع أن القاعدة تقتضي نصبه.

يُوجّه الزجاج هذه القراءة باعتبارها قراءة متواترة، ويُبيّن أنّ الظاهر النحوي لا يناقض صحة المعنى، ويذكر احتمال البناء على لغة من لغات العرب التي تُلزم "هذان" الألف في حالتي الرفع والنصب.

البلاغة في التوجيه: ثم يتجاوز الزجاج ظاهر الإعراب، ليشير إلى أن المقصود هو التهويل والتقوية، فالجملة تحمل معنى الإنذار والتحذير من شأن موسى وأخيه، ولا تقف عند البيان الحيادي. فـ"إن" و"اللام" في الخبر كلتاها أدوات توكيد، والتكرار المقصود في البنية يُضاعف من وقع الخطاب في السامع (الزجاج، 1988، 330/3).

الموضع السابع: قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: 18]

التوجيه البلاغي: يفسّر الزجاج حذف الفعل في هذا الموضع (بدل: فأصبر صبراً جميلاً) بأنّه أسلوب بلاغي يُفيد الثبات والتسليم، إذ جاء الجواب من الأب يعقوب عليه السلام بصيغة اسمية تدلّ على الدوام والثبوت، وليس على حدثٍ عارض.

أثر التوجيه: الصبر هنا مذكور بلفظ "جميل"، والزجاج يبيّن أن هذا الجمال إنما هو عدم الشكوى والرضا بالمقدور، وهو ما يعمّق دلالة الصبر. فالحذف، والإيجاز، وبناء الجملة الاسمية، كلها أدوات بلاغية التزمت لتجسيد معنى الرضا والانكسار النبيل (الزجاج، 1988، 139/3).

الموضع الثامن: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37]

التوجيه البلاغي: يتناول الزجاج لفظ "مرحاً" مبيّناً أنه لا يدلّ على الفرح المشروع، بل على الاستعلاء والطيش والخفة المتكبرة، أي أن النهي ليس عن المشي فحسب، بل عن هيئة نفسية تُفضي إلى الكبر والسلوك المذموم.

البلاغة في التركيب: الزجاج يبرز أن العدول عن "تكبراً" أو "خيلاء" إلى "مرحاً" فيه اختيار دقيق للكلمة التي تحوي دلالة مزدوجة: الكبر، والفرح الباطل. وفي هذا التوجيه يظهر أن البلاغة في القرآن لا تكتفي بالوضوح، بل تسعى إلى أدقّ مستويات التصوير المعنوي (الزجاج، 1988، 276/3).

الموضع التاسع: قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22]

التوجيه البلاغي 'العقدي': يتناول الزجاج الآية في ضوء أصل عقديّ متين، فيفسّر مجيء "ربك" بأنه مجيء أمر الله وسلطانه وقضائه، لا مجيئاً حسيّاً. ويوجّه الصورة البلاغية على أنّها تمثيل للهبة والرغبة وشمول القدرة.

جمال التعبير: التعبير بـ"جاء ربك" جاء في مقام تصويريّ ليوم القيامة، فالغرض منه تحقيق المشهدية الكاملة في ذهن المتلقي، وليس تصوير الحركة الحسية. وهذا من أرقى صور التوجيه البلاغيّ القائم على تصوير المعنى لا تصوير الهيئة (الزجاج، 1988، 307/5).

10. خاتمة ونتائج:

خلصت هذه الدراسة إلى أن أبا إسحاق الزجاج لم يكن مجرد نحوي يقتصر على ضبط الإعراب، بل كان مفسراً وبلاغياً بارعاً جمع بين النحو والبلاغة في تفسير القرآن الكريم. وقد أبرز البحث أن الإعراب عنده وسيلة لفهم المعنى، وأن البلاغة إطار لإظهار أبعاد النص القرآني من خلال التقديم والتأخير، والحذف والإيجاز، والاستعارة والكناية كما تبين أن الزجاج أسهم في تمهيد الطريق لظهور نظرية النظم عند عبد

القاهر الجرجاني، وأن أثره كان بارزاً في تفاسير الزمخشري والرازي وغيرهما من المفسرين الذين اعتمدوا التحليل اللغوي والبلاغي المتكامل، توصي هذه الدراسة بمزيد من البحث في جهود الزجاج من خلال مقارنتها بالمناهج اللسانية والبلاغية الحديثة، وإجراء دراسات مقارنة بينه وبين أعلام آخرين كالمبرد والفراء للكشف عن فريدة منهجه وأثره في الفكر اللغوي والبلاغي.

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

- 1- أن الزجاج جمع بين الدقة النحوية وجمالية الأسلوب البلاغي في تفسيره.
 - 2- أن منهجه ترك أثراً واضحاً في مفسرين كبار مثل الزمخشري والرازي .
 - 3- أنه مهد الطريق لظهور نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني
- وتوصي الدراسة بإعادة قراءة جهود الزجاج في ضوء المناهج اللسانية الحديثة، ومقارنة تفسيره بالمقاربات المعاصرة للخطاب القرآني، بما يُبرز استمرار صلاحية منهجه في الربط بين المبنى والمعنى.

قائمة المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

الكتب:

1. الباقلاني الخطابي، بيان إعجاز القرآن K القاهرة: دار المعارف، 1997.
1. al-Bāqillānī al-Khaṭṭābī, bayān I'jāz al-Qur'ān. al-Qāhirah : Dār al-Ma'ārif, 1997.
2. ضياء الدين نصر الله ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، بيروت: دار الكتب العلمية، 1999.
2. Ḍiyā' al-Dīn Naṣr Allāh Ibn al-Athīr, al-mathal al-sā'ir fī adab al-Kātib wa-al-shā'ir, Bayrūt : Dār al-Kutub al-'Ilmiyah, 1999.
3. محمد فؤاد النجّار، أبي إسحاق الزجاج في ضوء الاتجاه اللغوي والبلاغي في تفسير القرآن الكريم، دار الفكر العربي، 2010.
3. Muḥammad Fu'ād al-Najjār, Abī Ishāq al-zjāj fī ḍaw' al-Ittijāh al-lughawī wa-al-balāghī fī tafsīr al-Qur'ān al-Karīm, Dār al-Fikr al-'Arabī, 2010.
4. يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1955.
4. Yaḥyá ibn Ziyād al-Farrā', ma'ānī al-Qur'ān, al-Qāhirah : al-Hay'ah al-Miṣrīyah al-'Āmmah lil-Kitāb, 1955.
5. ابن جني، الخصائص. القاهرة: دار الكتب، 1995.
5. Ibn Jinnī, al-Khaṣā'iṣ. al-Qāhirah : Dār al-Kutub, 1995.
6. ابن يعيش، شرح المفصل. بيروت: دار الكتب العلمية، 2001.
6. Ibn Ya'īsh, sharḥ al-Mufaṣṣal. Bayrūt : Dār al-Kutub al-'Ilmiyah, 2001.
7. أبو إسحاق الزجاج، معاني القرآن وإعرابه. القاهرة: عالم الكتب، 1988.
7. Abū Ishāq al-Zajjāj, ma'ānī al-Qur'ān wa-i'rābuh. al-Qāhirah : Ālam al-Kutub, 1988.
8. أبو علي الفارسي، الحجة في القراءات السبع. بيروت: دار الكتب العلمية، 1999.
8. Abū 'Alī al-Fārisī, al-Ḥujjah fī al-qirā'āt al-sab'. Bayrūt : Dār al-Kutub al-'Ilmiyah, 1999.
9. الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة. بيروت: دار الفكر، 2003.
9. al-Khaṭīb al-Qazwīnī, al-Idāḥ fī 'ulūm al-balāghah. Bayrūt : Dār al-Fikr, 2003.
10. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن. القاهرة: دار المعرفة، 1957.
10. Badr al-Dīn Muḥammad ibn 'Abd Allāh al-Zarkashī, al-burhān fī 'ulūm al-Qur'ān. al-Qāhirah : Dār al-

Ma'rifah, 1957.

11. جلال الدين عبد الرحمان السيوطي،. الإتقان في علوم القرآن. بيروت: دار الفكر، 1987.
11. Jalāl al-Dīn 'Abd al-Rahmān al-Suyūṭī, al-Itqān fī 'ulūm al-Qur'ān. Bayrūt : Dār al-Fikr, 1987.
12. عبد العزيز عتيق، . البلاغة العربية: علم المعاني. القاهرة: دار النهضة العربية، 1985.
12. 'Abd al-'Azīz 'Atīq, al-balāghah al-'Arabīyah : 'ilm al-ma'ānī. al-Qāhirah : Dār al-Nahḍah al-'Arabīyah, 1985.
13. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1982.
13. 'Abd al-Qāhir al-Jurjānī, Asrār al-balāghah. al-Qāhirah : Maktabat al-Khānjī, 1982.
14. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز،. القاهرة: مكتبة المدني، 1991.
14. 'Abd al-Qāhir al-Jurjānī, Dalā'il al-i'jāz, al-Qāhirah : Maktabat al-madanī, 1991.
15. فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب. بيروت: دار الفكر، 1981.
15. Fakhr al-Dīn al-Rāzī, Mafātīḥ al-ghayb. Bayrūt : Dār al-Fikr, 1981.
16. كمال حسن، الدراسات البلاغية الحديثة. عمان: دار الفكر، 2005.
16. Kamāl Ḥasan, al-Dirāsāt al-balāghīyah al-ḥadīthah. 'Ammān : Dār al-Fikr, 2005.
17. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن. القاهرة: دار هجر، 2000.
17. Muḥammad ibn Jarīr al-Ṭabarī, Jāmi' al-Bayān 'an Ta'wīl āy al-Qur'ān. al-Qāhirah : Dār Hajar, 2000.
18. محمد بن يزيد الرازي، فخر الدين المبرد، المقتضب. بيروت: دار الكتب العلمية، 1997.
18. Muḥammad ibn Yazīd al-Rāzī, Fakhr al-Dīn al-Mibrad, al-Muqtaḍab. Bayrūt : Dār al-Kutub al-'Ilmiyah, 1997.
19. محمود الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل. بيروت: دار المعرفة، 1998.
19. Maḥmūd al-Zamakhsharī, al-Kashshāf 'an ḥaqā'iq ghawāmiḍ al-tanzīl. Bayrūt : Dār al-Ma'rifah, 1998.
20. يوسف السكاكي، مفتاح العلوم. بيروت: دار الكتب العلمية، 1987.
20. Yūsuf al-Sakkākī, Miftāḥ al-'Ulūm. Bayrūt : Dār al-Kutub al-'Ilmiyah, 1987.